شروق من جهة أخرى

شروق من جهة أخرى
الكاتب: مصطفى دهيس
غلاف: محمود طارق
رقم الإيداع: 2716 / 2020
الترقيم الدولي: 7 - 099 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**
E- mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات
المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم
01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

9 789778 440997

شُروقٌ من جهةٍ أُخرى

مجموعة قصصية

الكاتب

مُصطفى دهيس

دار الأيام للنشر والتوزيع

"إهداء"

إلى من علمتني كيف يكون الامتنان عند الكبرياء.

إلى من عرفتني المعنى الغامض لحلاوة الانهزام حينما لا يكون هنالك معنى للانتصار.

إلى من جعلتني أعرف أن الرغبة في التعايش لا تعني بالضرورة قوة الرأي وصلابة الرأس، وأن الاستمرارية في العلاقات الحقيقية هي التعامل عشرات المرات بحب، ومرة واحدة بغيرة، وأن لا تُقطع الشعرة بينهما بسيف العناد، وأن التعايش الصادق مع النفس وقبول الآخر كما هو، إنما ذلك هو السلام النفسي الحقيقي.

إلى من روضت الحصان الجامح...

مصطفى دهيس

"الكلب"

استعد الطفل الصغير «ألكسندر» للنوم، ذهب إلى فراشه ولم تغمض له عين حتى أتى جده «أدريان» وبدأ يحكي له حكاية ما قبل النوم كما تعوَّد قبل سنوات منذ أن بدأ يُدرك الأشياء.

قال الجد وقد دخل في الفراش بجوار الصغير، قصة هذه الليلة يا صغيري الجميل ألكسندر قد حدثت في قريتنا هذه قبل ثلاثين عامًا، لقد كان الوقت صيفًا، الشمس في كبد السماء، تصوب أشعتها الحارقة فوق رؤوس الناس الذين اجتمعوا من كل أرجاء القرية يتشحون بالسواد ويحملون الأزهار الأنيقة وأطواق الياسمين، الكل في زحامٍ شديد يتصببون عرقًا ولا يبالون بأشعة الشمس الحارقة، يتدافعون بالمئات، يدفع الرجال بعضهم بعضًا نحو المقدمة في هذا الزحام الشديد، الكل يريد أن يلحق هذه الجنازة المهيبة ويحظى بشرف حمل النعش إلى مثواهِ الأخير، ارتقت النساءُ شُرفات المنازل يُلوحن ويبكينَ بكاءً حارًّا،

ولعلَّك يا صغيري تسألني عن صاحب هذا النعش الجنائزي المهيب، الذي كاد أن يَهلك خلاله العشراتُ منَ الناس؟

نعم يا صغيري الجميل، لقد كانت هذه الجنازة الكبيرة لكلبِ القرية الأسود العظيم "نوثارمار"!

دُهش الصغير ألكسندر، ربما كان يعتقد أنَّ هذا الموكب الجنائزي العظيم لأمير البلاد أو حتى لقاضي البلدة العادل السيد "باركر" وتساءل باستهجانٍ:

- كيف يكون هذا المشهد الجنائزي المهيب لكلب قد مات؟! إن الكلاب تملأ المدينة، تنتشر في الشوارع وتكاد لا تخلو أي حديقة منزل من كلبين أو ثلاثة؟

مسح الجد على رأس الصغير وداعب شعره الناعم المتدلي فوق جبهته وقال: من هنا قد بدأت القصة يا بُني، كان الاعتقاد السائد بين سكان القرية بأن الكلب "نوثارمار" مجرد كلب كباقي كلاب القرية، ولكن لا أحد يعلم من أين جاء هذا الكلب الأسود واستوطن القرية واتخذ من أزقتها منزلًا له.

إلى أن بدأ الناس يُلاحظون أشياء عجيبة، لقد سمع الناس نباح ذاك الكلب على أي غريب يدخل البلدة، حتى وإن كان من أحد أقارب السكان، يَشرع في النباح ولا يتوقف إلى أن ينهره أحدهم من أقارب الضيف ويشرح له أن هذا الوافد إنما هو من أقاربنا من القرى المجاورة وليس لصًّا، حتى يكُف عن نباحه وزمجرته، ربما أسمعك يا صغيري وأنت تقول هذا هو دأب الكلاب مُنذ أن خلق الله الأرض، نعم هذا صحيح، إنما الأمر الآخر الذي حدث ولا يصدق، عندما كان أحد المُزارعين في تلك الليلة يروي أرضه على ضوء القمر في البر الشرقي من النهر فجاء الكلب "نوثارمار" جلس بجواره طوال تلك الليلة يؤنسه إلى أن فرغ من ري أرضه ثم عادا معًا، وهذا الأمر أيضًا ليس بالعجيب، ما حدث في صباح تلك الليلة هو العجب بعينه، لقد كان المزارع يحكي لأحد جيرانه ما حدث من الكلب، وكيف أنه جاء إليه في البر الشرقي بينما كان يروي أرضه وحيدًا وآنسه طوال تلك الليلة، حتى عادا معًا عند الفجر، فصاح الرجل: كذبت أيها الرجل، كيف ذهب إليك الكلب إلى البر الشرقي من النهر وجلس معك إلى الفجر وفي تلك الليلة كان

الكلب عندي يجلس بجواري وأنا أصلح سقف حظيرة ماشيتي؟ لقد ألقيت له قطعتين من اللحم وأنا أتناول عشائي!

تصايح الرجلان وأقسم كل منهما بكل ما هو مقدس أنه على حق، وأن الكلب كان بصحبتهِ، وأن الآخر إنما هو مُدعٍ أو إنه قد رأى خيالًا ولم يكن الكلب! إلى أن جاء رجلٌ ثالث قد سمع تصايحهما وقال ينهرهما: كذبتما وادعيتما بما لم يحدث، إن هذا الكلب كان معي أنا..

في تلك الليلة بينما كنت أجمع محصول البطيخ من حقلي مع بداية الليل وأحمله فوق العربة استعدادًا للذهاب به إلى سوق المدينة مع بزوغ الفجر، كان الكلب معي يذهب خلفي قاطعًا الحقل بطولهِ وأنا أجمع حبات البطيخ، ويعود خلفي أيضًا عندما أذهب لأضعهما فوق العربة، وهاكم ولدي كان معي فاسألوه، لقد أخذ يداعب الكلب! لقد عاد معنا أيضًا في نهاية الليل وجلس هنا بجوار الثمار، أشار بيدهِ على المكان الذي يعتقد أن الكلب "نوثارمار" جلس فيه فوق عربته التي يجرها بغله.

انتهى الحوار بين الثلاثة رجال، كل منهم يعتقد بأن الكلب كان بصحبتهِ هو في تلك الليلة، وأن الآخرين ربما يكون كلبًا آخر كان معهما،

الغريب في هذا الأمر يا صغيري، أن الكلب "نوثارمار" كان معي أنا ها هنا في منزلنا، نعم أتذكر جيدًا تلك الليلة التي تصايح فيها الثلاثة رجال بجوار منزلنا، لقد كنت قلقًا هذه الليلة، فجدتك كانت في وضعها الأول وعندها القابلة والخادمة وبعضُ النِسوة، في هذه الليلة ولدت أبوك، كنت خائفًا عليها وقد جاء الكلب "نوثارمار" على غير العادة، لا أعلم كيف دخل إلى فناء المنزل، ربما يكون قد تسلق إحدى الأشجار وولج من السور، جاء وجلس بجواري كان يشعر بقلقي وخوفي وتلهفي، وينظر إليَّ نظرات حنون كأنما هي عطف أو مؤانسة، لا أدري!

جلس يتمسح بملابسي، إلى أن سمعت أُولى صرخات أبيك وقد جاء إلى الدنيا، سعدت أيما سعادة، أدرت ظهري إلى الكلب حتى أشاركه سعادتي، فلم أجده، لقد اختفى مرة واحدة.

توالت مثل هذه الحكايات عبر الأيام والسنين، حتى اعتقد الناس أن الكلب "نوثارمار" ليس مجرد كلب عادي؛ إنما هو روح، روح طيبة سكنت جسد ذلك الكلب.

هذه الروح قد أرسلها الله إلى قريتنا، تؤنس الناس وتساعدهم وتقف بجوارهم، تشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، تجلس معهم في حِلهم وتذهب معهم في ترحالهم.

وقد أطلق الناس على الكلب هذا الاسم "نوثارمار" نسبةً إلى الشمس والقمر.

ففي لغتنا القديمة، الشمس تعني "نوث" و "أرمار" تعني القمر، فهو معك في النهار مثل الشمس لا يتركك، وصديقك الصدوق في الليل مثل القمر يؤنسك كما يؤنس القمر السهارى والحيارى والعشاق.

قال الصغير ألكسندر وقد برقت عيناه: أنا لا أستطيع أن أعتقد ذلك يا جدي، إن ألطاف الله أكبر من أن يضعها في روح ثم يرسلها في جسد كلب، الله يرسل ألطافه وعنايته إلى الناس مُباشرة، يشعرون بها، يحسونها في أرواحهم، الله لا يضطر إلى فعل مثل ذلك!

قال الجد: هذه هي نهاية الحكاية يا بُني، عليكَ أن لا تحتقر ما لا تؤمن به ويؤمن به غيرك، لا تزدرِ بعينيكَ منظرًا قد لا تراه مناسبًا لرؤيتك، ويراه غيرك مألوفًا.

يا بُني أنت لا تمتلك إلا عينيكَ وقلبك وشعورَكَ، فقد ترى أمرًا خطأ ويراه الناس صوابًا، وهذا لا يعني أنك على صواب والناس على خطأ؛ ربما يرى الناس ما لا ترى، وربما ترى ما لا يرون، كلٌّ حسب ما يعتقد ويشعر ويَفخر.

الناس يا صغيري سواسية في كل شيء عدا ما يعتقدون بقلوبهم وعقولهم، فلن تمتلك مقدرة تغيرهم ولا قِبَلَ لك بهذا فلا تحقرنَّ ما يعتقدون لو لم يوافق هواك، ولا تسخر منهم.

إن أنبل شيء يمتلكه المرء في هذه الحياة يا بُنيَّ هو العطاء، ليس العطاء المادي وحسب؛ إنما العطاء بما تحمل الكلمة من معنى، عطاء الاحترام، احترامك لهم جميعًا، عطاء القدوة الطيبة التي يجدونها فيك، عطاء احترامك لما يعتقدون وإن كان لا يناسب ما تعتقد أنت، فتلك مشكلتك لا مشكلتهم.

هذا يا بُنيَّ ما يجب أن يكون عليه المرء طوال عمره.

«تمت»

❋ ❋ ❋

"شروق من جهةٍ أخرى"

" أجمل هدية قد تُقدَّم للمرأة هي الاهتمام "

ذهب سامي إلى مستشفى العظام لزيارة ابن خالته عبد الرحمن الذي أصيب بكسر في ساقه جراء حادث سيارة، مما استدعى تجبير القدم وملازمته المشفى لشهرين متتابعين.

سامي شاب نحيف ووسيم بلغ الثامنة والعشرين من العمر الشهر الفائت، يعمل في برمجة الحاسبات والأجهزة الذكية في محلٍّ له في سوق الإلكترونات.

له شعر ناعم متدلٍ على جبهته وعينان واسعتان، طويل القامة، فكاهي جدًّا، حتى إن ابن خالته عبد الرحمن وصديقه المقرب أطلق عليه لقب المهرج النحيف.

(مستشفى الزهور التخصصي ـ الاستقبال)

– من فضلك يا آنستي.. جاءني اتصال منكم منذ حوالي ربع ساعة بخصوص شاب مصاب في حادث اسمه عبد الرحمن..

- أنت سامي؟

- نعم أنا هو..

- لا تقلق ابن خالتك بخير، لقد أصيب بكسر في الساق وتم عمل اللازم، وهو الآن بغرفته في الطابق الثالث.. غرفة رقم (8) يمكنك رؤيته بعد أن تذهب إلى الخزينة وتسدد هذه الفاتورة إلى أن أجهز لك إذن الزيارة.

- وهو كذلك.. أين الخزينة؟

- من هنا على اليسار..

سدد سامي فاتورة العلاج ثم عاد إلى الاستقبال فلم يجد الفتاة التي كانت تحدثه منذ قليل وتجهز إذن الزيارة، فسأل عنها فتاة أخرى كانت تقف على طاولة الاستقبال فأخبرته أنها ذهبت لمتابعة إحدى الحالات وبإمكانه الاتصال على الرقم الخاص بها المعلق في هذه الورقة الملتصقة على الحائط، أخذ الرقم وحاول الاتصال به فوجده مغلقًا، فذهب واستقل المصعد الكهربي إلى الطابق الثالث غرفة رقم (8) حيث عبد الرحمن.

– ها قد جاء المهرج النحيف..

– أما زلت على قيد الحياة أيها الأرعن؟

عبد الرحمن ضاحكًا:

– لن أموت إلا وأنت معي..

– ماذا حدث يا عبد الرحمن؟ أنت بخير؟ هل هناك شيء غير هذا الكسر في ساقك؟ وكيف صار هذا الحادث؟

– على هونك يا سامي، أنا بخير ولله الحمد، صار الحادث عند ميدان الدراجة وأنا المخطئ، أنا من قطعت الإشارة وهي حمراء.

– ولم ذلك؟ أما زلت على جنونك هذا وتهورك؟

– لقد كانت هناك فتاة بالجهة المقابلة أردت أن ألحق بها فحدث ما حدث

سامي صارخًا وساخطًا:

– يا لرعونتك! أما زلت تُطارد الفتيات؟!

عبد الرحمن مبتسمًا في بلاهة كمن يقر بأمر محتوم:

– ماذا عساي أن أفعل؟ هذا دائي يا صديقي.. مطاردة الفراشات.

ضرب سامي على ساقه المجبورة وقال:

- وهذا دواؤك.. لا أدري ماذا أقول لخالتي هذه المرة، في كل مصيبة تفعلها تدفعني لاختلاق الأكاذيب كي تنجو من جام غضبها.

عبد الرحمن موجهًا نظره خارج الغرفة:

- اصمت، جاءت الطبيبة المباشرة، ما رأيك فيها؟ أما تبدو جميلة؟

سامي بجنون:

- عليك اللعنة.. حتى وأنت في هذا الموضع!

الطبيبة مبتسمة:

- كيف حال ضيفنا الآن؟

- أنا بخير يا دكتورة بفضل الله ثم بفضل تعبك.

- لا تقل ذلك لم نفعل شيئًا غير اللازم.

- أنت هنا أ/ سامي.. عذرًا لقد غادرت قبل أن أعطيك إذن الزيارة في الاستقبال، كنت أباشر حالة.. هاك هو تفضل.

- لقد قمت بالاتصال على هاتفك المعلق على الجدار فوجدته مغلقًا.

الدكتورة بأسى:

– آه.. هاتفي معطل منذ أمس لا أدري ماذا أصابه وليس لدي متسع من الوقت للذهاب به إلى أحد المختصين.

عبد الرحمن صارخًا كمن وجد فكرة عابرة:

– لقد جئتِ للشخص المناسب..

– ماذا تقصد؟

يشير إلى سامي:

– هذا المهرج النحيف خبير ومتخصص في الهواتف والحواسيب والبرمجة ولديه محله الخاص..

– حقًّا! يااا لحظي الجيد وهذه المصادفة العجيبة، ها لقد جاءني المتخصص إلى هنا.

سامي ضاحكًا:

– أين هو الهاتف؟

– ها هو في جيب المعطف، متوقف تمامًا ولم يعمل برغم محاولة إنعاشه..

- سامي فاحصًا الهاتف:

- هل سقط في المياه أو أصابه شيء من المحاليل المنتشرة في المشفى؟

- لا لم يحدث شيء من هذا؛ لقد توقف من تلقاء نفسه.

- مبدئيًّا إما أن هناك خلال في البطارية، أو أنه يحتاج إلى برمجة لنظام التشغيل، على أي حال لا بد أن آخذه معي إلى المحل لفكه وإلقاء نظرة عن قرب من الداخل.

- لا بأس هاك هو معك، ولكن أرجو أن لا تتأخر به كثيرًا فهو جزء من عملي وعليه ملاحظات بجميع الحالات التي أباشرها وبعض البيانات.

- لا تقلقي سأصلحه فورًا إن شاء الله.

- أما أنا فسأذهب لإلقاء نظرة على إحدى الحالات الأخرى، ولكن لا تنس أن تمر في الاستقبال حتى ننزع شريحة الاتصال ونضعها في هاتف آخر موقت.

- حسنًا سآتي إليك هناك بعد انتهاء الزيارة.

عبد الرحمن بنظرة حقد دفينة:

- ها قد جاءت الفرصة إليك مواتية.

سامي باستغراب وبحنق شديد:

- أيها المعتوه، ألا تكف! أية فرصة؟

- هذه الجميلة، أقصد الدكتورة ما رأيك بها؟

- كم أنت مريض عقل، أوأنا مثلك؟ اسكت أيها الأبله، لا بد أن لديها زوج وأسرة وأطفال بعد.

- لا لا.. لا أظن ذلك، أنا خبير بالنساء، أعرفهن من النظرة الأولى، هذه بكل تأكيد ما من رجلٍ في حياتها.

- قلت لك اسكت وتعال نفكر في حيلة نقولها لأمك عندما تعرف خبر إصابتك.

* * *

(في الاستقبال):

انتظر سامي الدكتورة إلى أن تأتي، تأخرت قليلًا فسأل عنها إحدى زميلاتها، أخبرته أنها تباشر إحدى الحالات وستأتي بعد قليل.

- هذا المكتب خاص بها؟

- نعم هي تجلس هنا عادةً.

- حسنًا سوف أنتظرها على هذا المقعد، شكرًا لكِ.

جلس على المقعد الذي دائمًا ما تجلس عليه وأمامه المكتب عليه بعض الأوارق المنتشرة والأقلام وكشوف مرضى، أخذ يتسلى بقراءة الأوراق المنتشرة..

هذه هي بطاقة مباشرة العمل الخاصة بها.

الاسم: مرام السيد سماحة.

المهنة: دكتور مساعد (مستشفى الزهور التخصصي - قسم العظام)

الميلاد: 19 / 10 / 1983.

العنوان: 12 شارع عائشة التيمورية جاردن سيتي.

عضوية رقم: 1724300

ورقة أخرى عبارة عن مفكرة كُتبت عليها بعض الملاحظات.

ملاحظات المنزل:

- توقف المسلسل في حلقة الحلقة 24 عند الدقيقة 17.

- وضع كريم الترطيب قبل النوم بنصف ساعة.

- كي ملابس العمل.

- نقع الزنجبيل والنعناع والليمون (وصفة التخسيس).

- الاتصال على خالي جلال في المحل من التليفون الأرضي.

ابتسم سامي من هذه التعويذة الأنثوية اللذيذة وقال:

- يا لها من بريئة وساذجة.

ثم شبك يديه على صدره وجلس ينتظرها.

- تأخرت عليك؟ متأسفة.

- لا بأس، كنت أنتظرك وأنا أقرأ ملاحظاتك تلك.

ابتسمت وأغلقت عينيها بقوَّة كمن يخفي خجله وقالت:

- ماذا عساي أن أفعل؟ إنني أنسى دائمًا.. لجأت إلى هذه المفكرة بعد أن تعطل الهاتف.. كنت أدون فيه أيَّة ملاحظات وأضعها كتنبيه عندما يحين موعدها، أقوم بتسجيلها بخط يدي حتى لا أنسى وتخرب الترتيبات اليومية.

ابتسم كأنه اقتنع بحديثها وقال:

- لا بأس سيكون الهاتف لديك غدًا وهو أحسن حال مما كان عليه سابقًا.

- أرجو ذلك ولك كل الشكر.

- إذن سأنصرف الآن ونلتقي غدًا هنا بعد العصر إن شاء الله.

- وهو كذلك.. إلى اللقاء.

* * *

كثيرًا ما نصادف في حياتنا الأشخاص الجيدين ولكن ليس في الوقت المناسب، نادرًا ما تنحل تلك المعادلة المعقدة ونلتقي بهؤلاء الأشخاص المناسبين الطيبين في الوقت الذي من المفترض أن نلتقي بهم فيه عندما تبتسم الحياة ونحن في كامل وعينا الإنساني والأخلاقي.

مرام فتاة جذابة، لها بشرة تميل إلى لون حبات القمح قبل نضجها بقليل، عيناها واسعتان سوداوان برموش طوال مهذبة طبيعيًّا، ابتسامتها أنيقة وفاتنة تكشف عن أسنان لؤلؤية لامعة وشفتين مكتنزتين كحبَّتي كريز آن أوان قطافهما، تتدلى على جبينها البارز قليلًا خصلتا شعر ناعمتين من كل ناحية كأنهما تسللتا من عتمة الليل.

ولدت وحيدة لأب كان يعمل وكيلًا لوزارة الصحة بإحدى مديريات القاهرة الصحية، وأم كانت تعمل مديرة لإحدى الجمعيات الخيرية.

لقد ورثت عن أمها طيبة القلب والأخلاق العالية ومساعدة الآخرين والتضحية لأجلهم، بينما ورثت عن أبيها الصَّبر والتجلد وقوة الشخصية.

مات أبوها وهي في عامها الجامعي الأول في كلية الطب التي دخلتها برغبة من والدها بعد صراع دام شهورًا مع المرض، عاشت بعد موته أربع سنوات مع والدتها، حاولت الأم في تلك السنوات أن تُعوض وتملأ الفراغ الذي أخلفه موت الأب، وفي آخر أسبوع من سنة تخرُّجها، بل قبل تخرجها من الجامعة وحملها الشهادة بيومين، ماتت الأم فجأة في ليلة سوداء شديدة العتمة وكأنما انطفأت نجومها.

وجدت نفسها وحيدة منزوية في تلك الشقة التي طالما لعبت في أركانها ودرجت طفولتها وسنيِّ مراهقتها فيها.. تجلَّدت وصبرت

وثبتت ثبوت الجبال الراسيات، ليس لديها من الأعمام إلا واحدًا يعيش في أمريكا منذ زمن بعيد، لا يسأل عنها إلا في المناسبات في العام مرة أو مرتين.

بينما يتعهدها خالها جلال وهو صاحب محل عتيق مشهور للساعات السويسرية في وسط القاهرة بالزيارة اليومية والاتصال طوال اليوم، يأتي ليلًا يتناول معها العشاء الذي يعدُّه بنفسه إذا تأخرت هي في العمل ويذهب إلى شقته في نفس الشارع حيث زوجته وابنته الوحيدة.

تزوجت مرام بعد وفاة أمها بعام ونصف من مهندس كهرباء كان يسكن في نفس البناية، كان متسلطًا وعديم الأخلاق لم تعرفه إلا بعد أن تزوجت به، يهينها باستمرار، لم تطق العيش معه ولم يستمر هذا الزواج إلا عشرة أشهر، لا تعلم كيف مرت بها تلك الأشهر السوداء، وانفصلت عنه بعد أن ضيَّع عليها كل حقوقها القانونية، ثم باع شقته لأحد السماسرة وهاجر إلى كندا حيث يعمل أخوه هناك.

كرست مرام حياتها للعمل والعمل التطوعي ومساعدة المرضى ولخالها المسن جلال.

كانت تعتقد أن العمل المتواصل والعمل التطوعي هو بمثابة وقت ممتع وتنمية بشرية وفرصة لاكتساب خبرات، ومن هذا الاعتقاد انطلقت في عالم الأعمال.

* * *

- ها قد أتيت.. مساء الخير.

- مساء النور أستاذ سامي.. طمئني.

- سوف أطمئنك ولكن ليس قبل أن تنزعي كلمة أستاذ.. أنا سامي فقط.

- ضاحكة.. حسنًا يا سامي..

- ها هو جهازك، قد عادت له الحياة مرة أخرى بعد عملية زراعة قلب ناجحة.

ضحكت بصوت مسموع:

- حقًّا؟

- ها هو افحصيه بنفسكِ..

تصرخ بسعادة وهي تفحصة:

- يااا الله، لقد عادت الحياة ليومي مرة أخرى...

حقًّا لا أعرف كيف أشكرك يا سامي على هذه الخدمة الكبيرة..

- لالا.. لا داعي لأي شكر، لم أفعل شيئًا، كان هناك خلل في نظام التشغيل، قمت بعمل إعادة برمجة له على جهاز خاص بذلك مع الاحتفاظ بنسخة من جميع المحتويات التي كانت عليه وها هو قد عادت له الحياة.. وبالمناسبة حفظت رقمي عليه باسم سامي المهرج النحيف لربما احتجتِ شيئًا في مقبل الأيام.

- لا لا سوف أستبدله باسم سامي دكتور القلب.

ضحك في خجل وقال:

- نعم دكتور قلب الهواتف.. على أي حال سوف أذهب الآن لأرى ذلك المعتوه عبد الرحمن كيف حاله اليوم..

- حسنًا تفضل ولنا لقاء بإذن الله، لو كان لديك وقت بعد الزيارة مر علينا في الاستقبال نشرب قهوة..

- وهو كذلك، سوف آتى إليك هناك بعد الزيارة.. إلى اللقاء.

عاد سامي إلى عبد الرحمن في غرفته واطمأن عليه وقضى وقتًا قليلًا معه، ثم تركه بصحبة والدته وذهب إلى الاستقبال، جلس مع مرام في غرفة خاصة تستخدم للراحة يرتشفان الشاي ويتحدثان بشكل ودي في شتى المجالات، حدثها عن دراسته للفلسفة التي لا تطعم الخبز في هكذا أيام، وحدثها عن عمله وعن والده هذا الرجل الطيب الذي لا يحرمه من شيء وعن منزلهم في ريف العياط القريب من الجيزة.

حدثته هي عن تجربة زواجها الفاشلة القاسية، وأخبرته بأنها كانت أقسى أيام مرت بها في حياتها، حدثته عن جوانب من عملها هنا في المشفى وعملها الآخر التطوعي في الجمعيات الخيرية، وعن خالها جلال صاحب محل الساعات، وأخبرته كيف أنها تقضي أيامها على هذا النحو..

وفي نهاية الحديث شكرها على الشاي وعلى الاهتمام بعبد الرحمن ثم استأذن بالانصراف، وأثناء ذهابه وقف عند الباب واستدار إليها وقال:

- بالمناسبة، عيناكِ جميلتان جدًّا.

ضحكت في بساطة وقالت:

- أعتبر هذه مغازلة أم معاكسة؟

- اعتبريها حقيقة استطاعت أن تخرج إلى العلن ولم تختفِ ككل الحقائق.

ابتسمت في إعجاب بما قال:

- إذا كان الأمر كذلك فلا بأس وشكرًا لك من القلب.

* * *

سرعان ما تمر الأيام، تتسرب من بين أيدينا في جنون كأنما هي خيول كانت محبوسة منذ الأزل وأُطلقت.

انقضى الشهران سريعًا وخرج عبد الرحمن من المشفى معافى تمامًا، وقد كان قبل أن يخرج يزوره عبد الرحمن بشكل يومي طيلة الستين يومًا يقضي معه قليلًا من الوقت ثم يذهب حيث مرام، يجلس معها يتحدثان بشكل ودي كأنهما صديقان حميمان، يسأل عنها وعن أحاولها ويسلم عليها وينصرف، وقد أقام عبد الرحمن حفلة بسيطة بمناسبة خروجه من المشفى، دعا فيها الأهل والأصدقاء وقدم الدعوة إلى مرام هاتفيًّا، وقد

حاولت أن تعتذر منه فأصر عليها فوعدته بالمجيء، وانقضى الحفل وأصرَّ سامي أن يوصلها إلى منزلها بسيارته.

– ها قد وصلنا، هنا شقتي في هذه البناية، ثم أشارت إلى بناية أخرى في آخر الشارع وقالت: وفي هذه العمارة في أول الشارع يسكن خالي جلال مع زوجته وابنته الوحيدة.

– كم هو جميل هذا الحي، هادئ ومنظم.

– نعم إنه كذلك..

– حمدًا لله على السلامة.

– شكرًا سامي.. قد أتعبتك.

– ليس هناك أي تعب، وجودي معك يجعلني سعيدًا، هناك أمر إن سمحتِ به..

– ما هو؟

مد يده إلى المقعد الخلفي للسيارة، تناول صندوقًا صغيرًا مغلفًا على شكل هدية أعطاها إياه.

– هذا لكِ.

– ما هذا؟ أهي هدية!

– ليس تحديدًا..

– إذن ماذا يكون؟

– إنه هدية وفي نفس الوقت ليس هدية...

– أهو لغز؟

– لا ليس لغزًا ولا تفتحيه الآن ستعرفين عندما تفتحينه في الشقة وتكونين فيها بمفردك، عندها ستعرفين ما بداخله..

– أقلقتني يا سامي..

– لالا، لا تقلقي أبدًا، ستعرفين بعد قليل واسمحي لي بالانصراف.

– حسنًا.. طابت ليلتك.

– مع السلامة.

* * *

دائمًا ما يأتي الحب إلينا دون سابق إنذار، يطرق باب قلبك ويدخل قبل أن يؤذن له، يباغتك كطوفان أو إعصار يفتك بكل تحصينات قلبك، يقتلعها من جذورها ويرمي بها في قاعٍ سحيق، يجلس متربعًا كملك

منتصر على عرش قلبك، يحكم فيه بقوانينه ويمشي مزهوًا بصولجانه في أنحاء جسدك، أول قتلاه عقلك، يسلبك منه ويسلبه منك، فتمشي بلا عقل وتتصرف بلا انتباه، تجد نفسك تؤمن بأشياء لم تكن تتخيل في يوم من الأيام أن تفعها، وكأنما هناك غشاوة سوداء فوق عينيك تحجب عنك الرؤية.

* * *

"عزيزتي دكتورة مرام

بل حبيبتي مرام، بعد التحية.

اغفري جرأتي، إنني فعلت ذلك مضطرًا

منذ شهرين تقريبًا أبحث عن قلبي فلا أجده، أبحث عن نومي فلا أستطيع العثور عليه.

خرجت كل حياتي مني، هنائي وشقائي ومستقبلي، وذهبت جميعها إليك.

ولا تسأليني عن سبب هذا وكيف حدث ذلك.

في الحقيقة ما من سبب جعل كل هذا يحدث غير سببٍ واحد وهو أنني أحبك.

نعم يا مرام أحبك، بكل جوارحي ووجداني، أحببتك من أول لقاء لنا في المشفى، بل إنني أحبك قبل أن أعرفك، أحببتك في حلمي وحلِّي وترحالي، وأصبحت روحي التي أحيا بها ولا أستطيع العيش دونها ولن تفارق جسدي إلا بموتي، يا رباه! إنني أحبك ولا أجد حروفًا من الأبجدية تصف هذا الحب.

أصبحتِ في قلبي نائمة ومستقرة، كفراشة في أحضان زهرة، كضلع في صدري أو عظمة أو فقرة، لا يهمني شيء في هذه الحياة غيرك، ولا أريد إلا الموت وأنا في حضنك وأمام عينيكِ الجميلتين.

لقد ترددت كثيرًا قبل الكتابة إليكِ، ولكن برغم تجلدي وكتماني لم أستطِع مقاومة حبك الذي استشرى في عقلي وقلبي وجسدي، وأصبحت لا تمر ساعة من نهار أو ليل إلا وصورتك شاخصة أمام عينيَّ، وعلى لساني اسمك أهذي به في صحوي وفي نومي، ليتني أستطيع أن أحملك بين يدي والهرب بكِ إلى عالمنا الخاص، أتقاسم مع القمر ضحكتك العذبة الصافية، وأرتشف من شفتيكِ ترياق الخلود الأبدي وأنتِ مكحلة بالخجل الوردي.

مرام يا قطعة من روحي، أنتِ الآن التي تتصرفين في هنائي وشقائي ومستقبلي.

أرجو أن تقدري شعوري نحوك، وتتقبلي هذا الحب الطاهر الذي أصاب قلبي وروحي واستقر بهما على هذا النحو الذي ذكرته لكِ، فلا يخالجنَّكِ الشك في هذا الحب، قد بلغت الثامنة والعشرين منذ شهرين، وأعي جيدًا ما أشعر به نحوك، وما أحسُّه نابعًا من أعماق أعماق قلبي.

هذا الصندوق به هذا الخطاب الذي كتبته لكِ قرابة الثلاثين مرة ومزقته مرارًا، وما كان لي أن ألجأ إلى هذه الحيلة، لكنِّي لم أستطِع البوح أمام عينيكِ، كان من الممكن أن أموت خجلًا.

في الصندوق أيضًا هدية لكِ وأرجو أن تقبليها مني، وهي عبارة عن هاتف محمول، أحدث نوع نزل في السوق، وهو نفس الهاتف الذي أستخدمه ونفس اللون.

وهذه الدمية التي على شكل عروس تلبس فستانها الأبيض وبيدها باقة الياسمين الجميلة، قام أحد الأصدقاء بتصميمها في ورشة خاصة بتوصية مني وكما أردتها.

طالما غفوت وهي بجانب سريري أتخيلها أنتِ.

في الصندوق أيضًا قلمي الخاص الذي أحبه كثيرًا، منقوش عليه لفظ الجلالة (الله الصمد) اقتنيته منذ فترة من مزاد للتحف بمصر القديمة.

وزجاجة عطر نسائية أرجو أن تنال إعجابك.

أرجو أن تقلبي مني هذه الهدية المتواضعة، ولا تتأخري بالرد بخصوص الخطاب.

وتقبلي أشواقي.

(المخلص)

(سامي ذكريا محيي الدين)

* * *

يقتلنا الحب قتلًا لذيذًا ويبعثرنا.

- ماذا فعلت أيها المجنون؟ ماذا كتبت؟ وماذا قرأت أنا حتى لكأنني لا أستطيع الوقوف على قدمين ثابتتين بهذا الشكل.

لماذا ترجعني وتحيلني إلى فتاة مراهقة تقرأ خطابًا غراميًّا لأول مرة؟

ماذا فعلت بي وبقلبي يا سامي حتى جعلتني أشعر بأنني أنزلق من منحدر محفوف بالفراشات والياسمين، أوله في السماء وآخره في الأرض عندك؟

لقد جعلتني أستلقي على سريري مغمضة عينيَّ وكأنني أحلق في الفضاء أمام نافذة مفتوحة على الجنة.

ويل لي منك أيُّها الشرير الصغير، كيف بك تمسك بتلابيب قلبي تعصرها عصرًا دون رحمة؟

يا رباه ما لي أحس بأنني أحبك كل هذا الحب، ولماذا أريد أن أراك أمام عيني الساعة ولا تنصرف أبدًا؟

لماذا أرغب في أن أمد يدي إلى يديك أمسك بهما بقوة ثم أضعهما على قلبي ليتوقف عن هذا النبض الذي يكاد يقتلني؟

لماذا أشعر في هذه اللحظة أنك قطعة مني، حبيبي وأخي وأبي؟

آآهِ منك يا سامي، لم فعلت ذلك بي؟

* * *

إن الحب كامن ككمون النار في الهشيم إن أصليته اشتعل، وإن أوريته توارى وأكل قلبك دون أن تشعر.

أفاقت مرام على صوت المنبه في الهاتف.

وجدت نفسها بين هذه الهدايا المبعثرة على سريرها وبيدها ذلك الخطاب الذي ضمته إلى قلبها طوال الليل، عاودت قراءته مرة أخرى حتى تتأكد أنها لم تكن تحلم، وعاودتها تلك النشوة التي غمرتها بالأمس، قامت من مكانها كأنها تحلق في فضاءٍ واسع وذهبت إلى المشفى مبكرًا تحث سائق التاكسي على السرعة، حتى إنه سألها عن سبب عجلتها:

- ما بك يا دكتورة؟ متعجلة اليوم على غير عادتك!

ابتسمت في مكر وقالت:

- هناك مريض بالقلب يا عم محمود أريد أن ألحقه.

صدقها المسكين محمود وهو لا يعلم أن القلب المريض إنما هو قلبها الذي اشتعل بنار حبها لسامي ثم قال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يأخذ بيده يا ابنتي، ويشفيه إن شاء الله.

ثم ضغط بكامل قدمه على دواسة البنزين حتى يلحق بمريض القلب.

مضت ثلاثة أيام لم يذهب فيها سامي إلى محلِّه ولم يكلم فيها أحدًا حتى إنه أصبح يحدث نفسه.

ترى ماذا فعلت بالخطاب؟ مزقته وألقت به بعيدًا؟

لماذا لم ترد عليَّ بأي شيء؟ هل تنتظر الفرصة المناسبة لتأتيني بالرد؟

يا رباه ماذا أفعل؟

بينما هو غارق في هلوساته إذا بهاتفه يرن.

- رسالة واردة (دكتورة مرام)

ياااا ويل قلبي يكاد ينفطر! ترى ماذا تحمل هذه الرسالة؟

هل تحمل السعادة الأبدية أم الشقاء الدائم؟

- صباح الخير يا سامي، كيف حالك؟ أرجو أن تكون بأحسن حال، اعذرني لم أستطِع الرد على الهدية في نفس اليوم، أود أن أشكرك من قلبي عليها، سعدت بها أيما سعادة، وأصبحنا أنا وهذه العروس صديقتين مقربتين، أحكي معها كل ليلة قبل أن تنام بجواري، وقد أطلقت عليها اسم (هناء) وأعجبني القلم جدًّا والعطر، شكرًا لك من القلب.

مرام.

* * *

تُرى لماذا تأخر في الرد على هذه الرسالة؟ تُراه سخط من تجاهلي لخطابه لأنني لم أذكره في الرسالة؟ اكتب يا سامي أي شيء، أكتب يا حبيبي، لا تغضب وسامح حبيبتك المجنونة التي لم تستطِع أصابعها أن تكتب شيئًا بخصوص خطابك الذي قلب كيانها، افتح لي المجال يا حبيبي، ساعدني.

– رسالة واردة – دكتور سامي طبيب القلب.

أفي كل رسالة يكتبها أصاب بهذا التوتر! ترى ماذا تحمل وبماذا رد عليَّ؟

– صباح النور يا مرام، هنيئًا لهناء كل هذا الهناء الذي حصلت عليه تنام بجوارك وتحظى بقدر من الدفء والحنين الذي ينبعث من جسدك، وقد نالت اسمًا أطلقته أنتِ عليها، فهنيئًا لهناء كل هذا الهناء.

ولكن كان هناك شيء آخر في الصندوق ألم يحظ هو الآخر بقدر من هذا الاهتمام؟

اعترفي، ماذا فعلت بالأشياء الأخرى التي كانت في الصندوق؟ قبل أن آتي وأقتل هناء خنقًا.

- رسالة واردة

قرأت الخطاب أيها الشرير ولا أدري ماذ أقول فيه.

- رسالة واردة

يجب أن نتقابل يا مرام لنتحدث قليلًا في هذا الموضوع.

- رسالة واردة

وهو كذلك يا سامي، فليكن يوم الثلاثاء، فهو عندي إجازة من العمل، أي بعد غدٍ إن شاء الله.

- رسالة واردة

فليكن موعدنا صباح الثلاثاء الساعة الخامسة صباحًا.

- رسالة واردة

الخامسة صباحًا يا سامي! لماذا في هذا التوقيت العجيب؟

- رسالة واردة

هناك ترتيب في رأسي بخصوص هذا الوقت بالذات، أرجو منك أن لا تفسدي ما رتبت له فليكن موعدنا الخامسة صباحًا سوف آتي وآخذك بسيارتي من أمام منزلكم.

- رسالة واردة

وهو كذلك يا مجنون، سوف نرى ما هو ذاك الترتيب العجيب.

رسالة واردة

سوف ترين وقتها، أشواقي وقبلاتي وحنيني إليكِ إلى أن نلتقي (أحبك).

* * *

كيف أحببتك يا مرام؟ بل كيف أصبحت وحدك دنياي وشمسي وسمائي؟

لماذا أشعر بهذه الرغبة الجامحة وبهذا الوجد الذي يختلج بين أضلعي تجاهك؟ كيف تسرحين في ممرات روحي بهذا الشكل؟! كيف أصبح وجودك بجانبي يغنيني عن هذا الكون بما فيه.

آآه يا مهجة القلب أريد الغرق في بحار عينيكِ، أريد الموت بين تعرجات صدرك، أريد أن أتوه في شلالات شعرك إلى الأبد.

- ها قد وصلنا.

- إلى أين تأخذني يا مجنون وما هذا المكان.

– إنه المكان الذي ولدت فيه، هنا قريتنا الريفية، وذلك هو بيتنا، ذاك الذي هناك وسط الزراعات يقف وحيدًا إلا من بعض البيوت القليلة القريبة منه، لقد هجرته وسكنت القاهرة، هنا درجت طفلًا صغيرًا لا أعرف من الدنيا غير هذا المكان، تسلقت أشجار المانجو، هذه العالية، كانت لدي البراعة في إسقاط الثمار الطازجة من بين الخضراء بواسطة الحجر عندما أتعب من التسلق. ها هي حظيرة الخيل بها حصاني الذي هجرته منذ زمن وخنت صداقته، يرعاه أبي حاليًّا ويعطف عليه.

– تعالي يا مرام سأريكِ شيئًا.

أخذها من يدها وصعدا إلى ربوة عالية تشرف على الوادي كله.

– أترين ذلك الوادي وهذه القرية التي في منتصفه؟ يتجهز الآن لاستقبال الشروق.

عندما كنت طفلًا صغيرًا كنت آتي إلى هذا المكان عند الشروق أرقب النور الهابط إلى بطن هذا الوادي، وكيف أنه يبعث الحياة فيه من جديد، كنت أشعر أن الصبح ينفخ الحياة في هذه الكائنات الميتة، فيرجع فيها الروح مرة أخرى فيبعثها من جديد، يتسلل إلى الحيوانات والخلائق

والزرع والطيور، فتصيح الديكة وتغرد العصافير، حتى إن الكلاب تعود وتنبح من جديد معلنة عن رجوعها إلى الحياة، تشتم أي شيء يصادفها كأنما تبحث عن شيء فقد منها في عتمة الليل الطويل، كنت أرقب النور وهو يتسلل إلى النوافذ فيفتحها للأفق، إلى فضاء أرحب واسع وجميل.

انظري يا مرام ها هو النور قد جاء، جاء ملك الحياة يبعث الأرواح للكائنات من جديد، ثم أمسك يديها ونظر إلى عينيها وقال:

- هكذا أنت يا شمسي فعلتِ بي ما يفعله هذا النور بهذا الوادي، وهبتني حياة فوق الحياة، ونفختِ في عتمة روحي فخلقتِ لي شعاعًا من نور وجهك، أرى من خلاله كل شيء جميلًا، ثم وضع يديه الكبيرتين على خديها اللينين وأزاح خصلة شعر ناعمة هاربة من عتمة شعرها برفق وقال:

- تتزوجينني يا مرام؟

قبل أن تتكلمي، فليشهد عليَّ الله وتشهد هذه الطبيعة وهذا الوادي وهاذان الشروقان، شروق الكون وشروق وجهك الصابح أني لا أريد من هذه الدنيا إلا أنتِ.

ثم برفق وضع يده أسفل ذقنها ورفع وجهها إليه، لا يفصله عن شفتيها إلا شهيق وزفير، أطبق شفتيه على شفتيها فشعر بأن نبراسًا يندفع إلى أعماق روحه، وأخذ يرتشف من عسل شفتيها ترياق الحياة، حتى كأنما شعر بشيء لا يمكن وصفه يسلبه روحه وحياته وعقله ويهبه حياة أخرى غير تلك الحياة التي نحياها، استمرا على هذا النحو قرابة الساعة ولم يشعرا بشيء إلا هذا النور الذي يتسلل من تحت أقدامهما على هيئة دائرة تحيط بهما من كل جانب، وكأنما هذه الهالة من النور التي أحاطت بهما قد عقدت بينهما هذا الرباط المقدس إلى الأبد.

«تمت»

❋ ❋ ❋

"نفرتيتي"

كانت السماء تبدو صافية إلا من بعض قطع الغيوم التي أتت على استحياء وتوسطت كبد السماء، اصطف الناس على جانبي الطريق رجالًا وأطفالًا ونسوة في مشهد مهيب. ساد السكون المدينة العتيقة، حتى كأنما العصافير والطيور سكنت عن التغريد في أوكارها، وعلى الأشجار، ربما كانت تنظر وتترقب هي الأخرى ماذا يجري، لا أحد يجرُؤ على المُضي قدمًا في ما هو سائر إليه، لا كلاب في الشوارع، لا ماشية، لا أسواق، سكون تام خيم على شوارع مدينة طيبة وتخومها، بدت الأعمدة الشاهقة تشق الأفق، آخذة في الارتفاع، لا صوت يعلو على صوت حوافر خيول العربة الملكية التي راحت تقدح شررًا وهي تخطو بخطى ثابتة متأنية. كان صوت حدواتها الحديدية يشق القلوب عندما يقتحم سكون الأزقة والشوارع الخلفية، وكأنما أخذت تعزف لحنًا موسيقيًّا أبديًّا لا ينتهي.

ولكن هذا الوقت من العام ليس فيه أعياد موسمية ولا مهرجانات سنوية، ولا أعلن البلاط الملكي عن شيء ولا حتى عن زيارة لأحد الملوك!

- ماذا يحدث؟

هذا ما همس به رجل يدعى (منكو) لرجل يقف بجواره في انتباه شديد.

فقال له الرجل في حذر مخافة أن يلمح أحد الحرس حركة شفتيه..

همس له بكلمة واحدة وراح في ثباته التام كلوح وضع منذ الأزل، (إنها نفرتيتي) كادت هذه الكلمة أن تخلع قلب الرجل الذي وجم مكانه وبرقت عيناه وأخذت ضربات قلبه تزداد بسرعات متناهية، تكاد أن تخرج روحه من فرط أنفاسه اللاهثة المتناهية السرعة، وأخذ يتصبب عرقًا.

إنه النجار (سنفرو) عاشق نفرتيتي.. وقف مكانه تحوطه الأفكار.. وتذكر عندما استُدعي بشكل رسمي من حاجب قصر الملكة نفرتيتي لإصلاح باب حديقة القصر، وذلك لمرض النجار الخاص بالقصر

الملكي. لقد شرد بفكره بعيدًا قبل عام، عندما ذهب إلى هناك ولحسن حظه كانت الملكة تجلس في حديقة القصر التي بلغ اتساعها ثلاثين فرسخًا، تَحُطْنَها الوصيفات، وحول الأرائك الوثيرة انتشرت الطواويس الملكية والطيور النادرة، لقد كان من المستحيل عليه الاقتراب من تلك المنطقة، والتي إن اقترب منها فلابد أنه هالك لا محالة، يا لتلك المسافات اللعينة، إنه يُمني نفسهُ بالاقترابِ، ووقف تأخذ به نسائم الحديقة الملكية وعطور أزهارها النفاذة كل مأخذ، شرد بذهنهِ، لا يعرف من أين أتى ولماذا جاء إلى هذه البقعة من الأرض التي لا وعي فيها.

راح يرقب هذا الجمال الإلهي الذي يسري في كل مكان كما سرى في روحه وخلده وقلبه وكيانه، كأنما هو سحر أخاذ يلهب العقل، ويملي النفس فتنة وجنونًا، وأيما جنون يأخذ عليه عقله وقلبه وجميع حواسه، وكأنما شاءت الأقدار أن تقتل من هذا المسكين كل حراك.

استدارت الملكة تعدل من جلستها فأصبح وجهها الفاتن مقابل وجهه على مسافة عشرة فراسخ كاملة، لقد التفت بعنقها ورفعت شلالات شعرها الأسود الجامح في الهواء الطلق فسقط مغشيًّا عليه ولم

يفق من غيبوبته إلا بعد يومين كاملين، وهو يحدق بوجوه من حوله بعينين زائغتين تائهتين، كأنما لا يريد لهذا الحلم أن ينتهي ولهذا الواقع أن يحضر.

إن ما شعر به هذا المسكين إنما هو دربٌ من دروب الجنون.. أو كأنما هو نوع من أنواع خروج الروح وتحررها في وقت لا يكاد أن يحصى، تلك اللحظة التي تفصُل بين العبقرية والجنون، ويبدو أن فتانا آخذ نحو الجنون، إنه وبعد أن أفاق من غيبوبته بيومين ذهب إلى حاجب القصر الذي اختاره من بين نجاري البلدة لإصلاح البوابة الملكية، وأعطاه صكًّا فيه تنازل لا رجعة فيه عن نصف ما يملك، وعلل ذلك بأن هذا المال إنما هو فرض عليه واجب النفاذ، كون أن الحاجب قد أراه لمحة من الجمال الإلهي من وجهة نظره.

فهو يعتقد أن ما رآه إنما هو جمال سماويٌّ وأن ذلك لمحة من لمحات جنات الخلد التي في السماء، لقد هام في الأرض لا يُعرف له مسكنًا، ينام في الأزقة، قد شوهد يتحدث إلى السماء كأنما هو في مناجاة مع طيفٍ، خفيٍّ، حاضر غائب، وفيه ارتياب. أخذ الموكب الملكي يمشي رويدًا

رويدًا لا أحد يعلم إلى أين هو ذاهب، لقد كانت الملكة ذاهبة إلى صومعة الكاهن (بيناجوش) الذي عرض تفسير رؤيا الملكة التي باتت تؤرقها لثماني عشرة ليلة متتالية.

لقد رفض ذلك الكاهن العجوز المثول بين يدي الملكة معللًا ذلك أنه إذا مثل بين يديها وغادر صومعته فلن يستطيع تعبير رؤيا الملكة، وقد كان أن وافقت الملكة على الذهاب إليه في صومعته حتى تعرف ما سر تلك الرؤيا التي تقض مضجعها لليالٍ طوال.

إن الملكة عندما علمت بشرطه في بادئ الأمر أقدمت على إزهاق روحه من ساعته بإشارة إلى قائد جيوشها، لولا أنهم أخبروها أنه رجل طاعن في السن، ولا بد أنه يهذي بغير عقل، ولولا أنها استشاطت غضبًا من تلك الرؤيا التي تشاهدها عيانًا في نومها لما تراجعت لحظة على قتل ذلك المجنون الذي اشترط حضور الملكة إليه لتعبير رؤياها.

لقد عدلت عن قتل ذلك الرجل وقالت بصوت ناعم حاد قوي وبابتسامة ساحرة ساخرة (لعل شيخوخته يتبقى فيها فضلة من حياة أو إن جنون شيخوخته سوف يعبر رؤيانا) وصل الموكب العظيم عند

الوادي، انتشر الجند في كل ربوعه ونُصبت الخيمة الملكية ثم ترجلت الملكة يحوطها الحرس والعبيد منكسي الرؤوس.

وراحت الوصيفات تلملمن أطراف الفستان الذهبي الأنيق، ثم جلست على مقعدها الملكي، ثم أتى ذلك الكاهن يتوكأ على عصاه وركع عند قدمي الملكة ورفع عينيه الذابلتين التي تقاوم العمى بفضلةٍ من نور تبقت في مقلتيه وقال: التحية إلى مولاتي العظيمة نفرتيتي ربة الجمال الأبدي والخير الوفير، اسمحي لعبدك الضعيف أن يرقب بما تبقى في عينيه من بصر هذا الجمال الهابط من السماء، لعل بريقًا من نور وجه مولاتي يعيد إليَّ بصري، فقالت بلهجة حاسمة خلعت أوصال قلبه: أخبرنا إذن أيها الكاهن عن تعبيرك لرؤيانا دون إبطاء، عبر لنا عن تلك الرؤيا التي قضت مضجعنا وأبعدت النوم عن أعيننا لثماني عشرة ليلة كاملة، إنني أرى قِطعانًا من السباع تقودها أسراب من الطيور الضخمة، تهجم على طيور وماشية وغزلان حديقة القصر الملكي، تحوم حولها وتهجم عليها فتقتلها، ثم تخلب لحمها وتأكله، أخبرنا عن تفسير تلك الرؤيا من ساعتك ودون تلكؤ.

استجمع الكاهن قواه واستعد لإجابة الصوت الملكي الحاسم ثم رمى بعض تخوت الحصى على قطعة قماش نُثرت عليها رمال بيضاء.

وراح يتفحصها وقد ظهرت نقوش التعبير على تلك القطعة. تشجع الكاهن على إخراج صوته دون تمتمة أو همهمة وقال: مولاتي العظيمة.. إنه وبعد خمسة آلاف عام من يومنا هذا، وبعد أن ينطفئ زماننا وتغرب شمس حضارتنا المقدسة، سوف تُنبش القبور بأمر الأحفاد الذكور، ويتوارى النور وتهدم المعابد والقصور، وتتعرى الأجساد من أكفانها، لتعرض على العباد، وبين تلك المحن وهذا الجنون سيكون لك وحدك يا سيدتي الخلود، ولكن بين أيدي البرابرة الذين سيكون لهم قوة غائرة وسطوة فاجرة، قوم يقال لهم ترك أو يونان، وربما ألمان وسوف تكون مولاتي شاهدة على الزمان في عصور الطوفان.

قالت الملكة بلهجة غضب واضحة: كيف ذلك أيها الكاهن؟

قال: ستكون ملامح سيدتي محفورة في تمثال صنع بإتقان من اليمين إلى الشمال، وسيكون عند ظهوره حديث البادية والحاضرة، يأخذ بانسياب ملامحه الألباب، والنظر إليه فتنة تذهب بالرشاد وسوف يبقى

أبد الدهر بين يدي الناس أُعجوبة من أعاجيب ذلك الزمن، ولكن بديار غير الديار وهواء غير الهواء، وسوف يستمر ذلك زمنًا طويلًا إلى أن يأتي حفيد من دم مولاتي فيسترجع تلك القطعة إلى أرضنا المقدسة وتقام الاحتفلات بذلك.. وهذا ما رأيته في تعبير رؤيا مولاتي العظيمة.

صمتت الملكة وقتًا طويلًا ربما ذهبت بخيالها إلى ذلك الزمن الغائر في قلب التاريخ، وبدت ملامحها الفاتنة مرهقة فاترة.. لقد ذهب كلام ذلك الكاهن المأفون بعقلها كل مذهب، وفي الحقيقة إن كلامه لم يلقَ أي استحسان منها، ربما لبعد المسافة الزمنية التي تحدث عنها ذلك العجوز، نهضت من مجلسها دفعة واحدة مثل نعامة فزعة بعد أن أكل الغضب ملامح وجهها، ثم بإشارة بطرف أصبعها للقائد بأن يقتل هذا المأفون الذي كدَّر يومنا، فكان سيفه أسرع من البرق الخاطف فاصلًا رأسه عن جسده.

«تمت»

❋ ❋ ❋

"حب في بلاد اللافندر"

كانت تتأمل طريقة أكله وكيف يلتهم شطائر اللَّحم قبل أن تبرد، والعجيب أنه رفض كأس النبيذ المعتَّق الذي قدَّمته له مع طبق الطَّعام.

بين الفينة والفينة ينظر إليها ويُعاود نهش الشطائر واحدة تلو الأخرى.

كانت سعيدة بذلك.. إنَّها ومنذ نعومة أظافرها لم ترَ شخصًا يأكل بهذه الطريقة، وبهذه الشَّهية الغريبة التي تقبل أي شيء عدا النَّبيذ.

إنه ومنذ أن لقيته مشرَّدًا على ساحل البحر وجذبته للعيش معها لم ينظر إليها نظرة غير سويَّة، حتى هي رغم حرمانها من حنان ودفء الرجولة منذ زمن طويل لم تفكِّر ولو للحظة أن يجمعهما فراش واحد، وعندما سقطت في المطبخ وهي تنظف النافذة وهرول إليها وحملها بين ذراعيه كالفراشة وذهب بها إلى غرفتها ويا ليت هذا البيت يتَّسع كالفضاء حتى يحملها إلى ما لا نهاية وهي معلَّقة تتنفَّس دفء دقات قلبه اللامتناهية كالمصائر..

ووضعها على سريرها دون حتى أن ينظر إلى عينيها.

إنَّ شخصًا مثل (عبد الغني) الذي حمله البحر من شواطئ الإسكندرية في رحلة مجهولة بين غياهب الأمواج المتلاطمة، وهو يحاول أن يصل الشاطئ الآخر حيث بلاد الخواجات؛ لا يخون الأمانة، ورغم أنه نشأ فقيرًا معدمًا كان يحمل نفسًا عفوفة لا تقرب الدنايا ولا يفكِّر طوال الوقت إلا في كيفية ردِّ الجميل لهذه السَّيدة (لوجين) التي تعمل في المحاماة، لقد أخذت تحكي له عن معاناتها مع زوجها السابق وكيف أنها تحمَّلت منه ما لا يطاق، كان يضربها لأتفه الأسباب وكان لا يستحم بالأسابيع، ولا يقدس الزواج ولا العمل.

لقد حاولت عبثًا أن تغير منه وتجعله إنسانًا مهذبًا ولكن دون فائدة، ولم تجنِ غير الإهانة منه والضرب، وعندما لم تجد منه بدًّا، أقامت دعوة وانفصلت عنه بهدوء.

مع الأيام أصبح (عبد الغني) هو صديقها المقرب الذي تحكي له كل شيء وتأخذ برأيه، ولقد فاجأته ذات يوم بالبطاقة الزرقاء التي يحصل

عليها اللاجئون الذين دخلوا البلاد بطرق غير شرعية، من خلال هذه البطاقة يحصلون على إقامة شبه دائمة وامتيازات أخرى كالتأمين الصحي وركوب المترو المجاني والإقامة في أي من الغرف الفندقية دون إبراز أي تحقيق الشخصية، ويمكنه أيضًا من خلالها إقامة مشروع صغير.

لم يجد من تراتيل الكلمات ومفرداتها ما يستطيع أن يعبر به عن سعادته وفرحه، فلم يدرِ بنفسه إلا وهو يقبِّل يدها برفق دون أن ينظر لعينيها. لقد أخذت هذه القبلة من نفسها مأخذها وعرفت أن لهذا الفتى الغريب قلبًا طيبًا ونفسًا إنسانية رقيقة، فعرضت عليه الزواج دون تفكير، ورغم أنها مسيحية من أتباع يسوع المسيح وهو فتى مسلم عربي؛ لم تفكر في هذا الأمر وتزوجت منه، ولم تستطع من يومها أن تجد مكانًا لهذه السعادة التي تغمرها، حتى إنها لا تفارقه في متجره الذي افتتحه على الشاطئ لبيع الورود وزهور اللافندر، وفي الخلف أقام مخزنًا يستخدمه الصيادون في تخزين أدوات صيدهم مقابل عشرين جنيهًا استرلينيًّا في الليلة الواحدة.

طوال الوقت تعلمه فن المخاطبة بالإنجليزية وإعداد الأكلات الإيطالية، بينما أخذ هو يعلمها من معاني القرآن الكريم وتقسيم المواريث في الدين الإسلامي، والقضاء في الإسلام والفُروض، ولقد فرحت فرحًا لا يوصف حينما ترافعت في قضية واستخدمت طريقة كان قد أخبرها بها في قصة من قصص عظماء القضاة في الإسلام، وبهذه الحيلة كسبت القضية الشائكة وذاع صيتها في أرجاء المدينة بعدما تفوقت على عباقرة القانون في هذه القضية، وكأن القدر كان يخبئ لهما سعادة أخرى فأنجبت طفلة جميلة أطلقا عليها اسم (جوري) كاسم هذه الورود التي تُزين البستان الذي يبيع فيه.

أخذ عبد الغني يعلم ابنته الصغيرة (جوري) الحساب والجمع والطرح بالطرق العربية المعروفة، فقال لها ذات مرة:

- حبيبتي (جوري) لو لديكِ عشر برتقالات وخمسة ضيوف فكم نصيب كل فرد من الضيوف من البرتقال؟

فقالت على الفور: نصيب كل فرد كوب من عصير البرتقال!

فاستلقى والدها من الضحك على ظهره.

إنها قد أخذت حِنكة والدتها وعفوية أبيها..

فقال لها مرة أخرى: لو لديكِ عشر زهرات من زهور اللافندر وثمن كل واحدة جنيهًا واحدًا فكم تحصدين من الجنيهات عند بيعها؟

فقالت على الفور وبدون تفكير: خمسين جنيهًا!

قال: كيف هذا؟

قالت: سوف أضع الزهرات العشر في سلَّة مزيَّنة ومطرزة وأهذبها حتى تصبح هديَّة قيِّمة وأضع عليها سعر خمسين جنيهًا.

فضحك ضحكًا صافيًا وهو يرى هذه الجميلة التي وهبها له الله في لحظة رضا، فحملها ومشى بها إلى الشاطئ يراقبان قناديل البحر التي جرفتها الأمواج وهما في انتظار أمِّها (لوجين) حين تعود.

«تمت»

"الـهـاوية"
(جاد الحقِّ)

كانت الشوارع خالية من المارَّة، نعم لقد كان الجو حارًّا هذه الليلة، بينما أضواء السيَّارات كالبرق الخاطف كل برهة تسطع في الطرقات، كان "جاد الحق" يخطو خطوات ثقيلة محاولًا المرور بين الحانة والحانة، إنها المرة الأولى التي يهبط فيها القاهرة قادمًا من أقصى صعيد مصر، لقد كلَّفه عمُّه أن يذهب إلى ابنه "عوف الله" الذي يدرس في الأزهر بالزيارة الشهرية، حاملًا معه من خيرات الريف من جبن وخبز وعسل ومصروفًا شهريًّا قدره خمسة وسبعين قرشًا.

كان "عوف الله" شابًّا أسمر، قوي البنية، ذا شعر أجعد وعضلات بارزة.

هبط عليه "جاد الحق" ابن عمه بثيابه الواسعة الفضفاضة وعمامته المكتظَّه على غير انتظار..، على ما يبدو الليلة عوف كان عنده "ضيف"

أو ربَّما "ضيفة"، نعم لقد وقف "جاد الحق" كالتمثال عندما سمع صوت ضحكات آتٍ من الغرفة الداخلية، ارتسمت على وجهه علامات الغضب إلا أن "عوف الله" خرج راكضًا بسرواله القصير محتضنًا ابن عمه، وانهال عليه تسليمًا وقبلات، غير أن "جاد الحق" ارتسم على وجهه ألف سؤال وسؤال.

ترك ما في يديه من حمولة على الطاولة وقال (مين معاك جوَّا يا عوف الله؟!).

قال عوف مرتبكًا: (ما تاخدش فـ بالك يا جاد، دي ست محاسن اللي بتنضف الشقة).

ثم بسرعة أدخل يده في سرواله القصير وأخرج ورقة من فئة "عشرة قروش" ومدَّها لـ "جاد الحق" قائلًا (خد دي وانزل جيب لنا أكل من المطعم، وهات بتعريفة شاي علشان نقعد ونحكي، والله انت واحشني قوي يا ولا.. يلا بسرعة على ما اغيَّر هدومي).

لم يكن ليخفى على ذلك الفتى السَّاذج "جاد الحق" الذي أتى من بين أعواد القصب والذرة ما يحدث، غير أنه قبض على العشرة قروش

بأصابعه، ثم هندم عمامته وهبط درج السُّلَّم على عجل، كان الشارع شبه خالٍ إلا من كلاب الليل التي تتسكَّع على الأرصفة تبحث عمَّا يسد رمقها.

وقف "جاد الحق" ينظر يمنة ويسرة على أي بقالة أو مطعم ليأتي بالمطلوب، فإذا بشاب عليه ثياب جيدة وعلى رأسه طربوش يلمع في الظلام، أشار إلى جاد الحق مناديًا (اتفضَّل يا بلدينا تعالى) ذهب جاد الحق ناحيته ومد له يده مصافحًا (السلام عليكم يا افندي) تبسم الشاب وقال (مساء الفل يا عمدة، انت مستني حد هنا؟).

جاد الحق: لا، أنا بس عادوَّر على بقالة أشتري قرطاس شاي..!

ضحك الشاب بصوت عال.. بينما تلحفته نظرات جاد الحق الحادة وصاح به..(ما لك يا افندي عتضحك على إيه؟).

قال الشاب مرعوبًا (لا لا مافيش يا عمدة، تعالى معايا وجوَّا فيه كل اللي انت عاوزه..).

ثم أخذه من يده ومر به الحانة وإذا بباب خشبيٍّ قديم يتدلى منه مقبض من الحديد.

طرق الشاب الباب مناديًا (قابل يا فرج) فُتح الباب فوجد جاد الحق نفسه بين خليط من البشر المصريين والأجانب، فلاحين وأفندية بطرابيش، ونساء شبه عاريات يصدرن ضحكات عالية، بينما الحزن يملأ أعينهن عن بكرة أبيها.. تقدمت إحداهن ناحيته وقالت ضاحكة (مرحب يا عمدة، تحب تشرب حاجة؟).

حاول أن لا تلتصق به وقال: (لا لا يا ست، اعملي معروف، أنا جيت هنا غلط).

قالت وهي تحاول لمسه: (بالعكس بقى، انت جيت المكان الصَّح).

فقال صارخًا في وجهها: (بعِّدي عنِّي يا ست واتحشَّمي).

بينما هي استمرَّت في فعلها وقالت: (انتو كدا يا صعايدة على طول طلقكو حامي) ثم قالت: (انت جاي هنا ليه؟).

قال: (أنا جاي هنا لولد عمِّي عوف الله عيتعلَّم في الأزهر).

فانفجرت منها ضحكة عالية وضربته بيدها على صدره وقالت (يوه هو انت قريب عوف؟ طب مش تقول كنَّا قمنا معاك بالواجب! عمومًا، محاسن عنده الليلة وراح يفرفشوا سوا، تعالى بقى أنا وانت نفرفش أنا هابسطك).

على ما يبدو أن جاد الحق لم يسمعها؛ لأنَّه كان سارحًا ببصره ناحية تلك الراقصة التي انهالت عليها الأموال من فئة الخمسة جنيهات والعشرة.. التي كان لا يراها إلا في أيدي تجار القصب والقطن، وكانت يداه تأكلانه.

«تمت»

❋ ❋ ❋

"مطـر"

أخيرًا وبعد إلحاح وعنادٍ شديد وافق السَّيد (موسكوتس) مدير مصلحة البريد أن تذهب ابنته (سيون) ذات العشر سنوات لزيارة صديقتها وزميلتها في الصف (أليخاندرا فيجارو) التي أصابتها الحمى الموسمية أثناء درس الرياضيات وسقطت مغشيًّا عليها ونُقلت إلى المشفى العمومي ومن ثمَّ إلى منزلها، لكنَّه وافق بشرط أن تذهب معها السيدة (مايندا) المربية الخاصة لها، وتعودان في غضون نصف ساعة من وقت خروجهما من المنزل.

انطلقت الصغيرة (سيون) التي تشبه الفراشات، بفستانها الوردي المطرز بحبَّات التركواز وهي تحمل في يدها سلَّة الورد التي قضت ساعة كاملة وهي تجمعها من حديقة المنزل ولحقتها قطَّتها المرقَّطة (كستيا) فابتسمت وحملتها معها فوق الورد. وكانت المربية (مايندا) البدينة تحاول أن تلحق بها وهي تحثُّها على المشي البطيء كي تلحقها. ما زال هناك متَّسع من الوقت فبيت (أليخاندرا) بعد إشارتي مرور قماشية التي

يمسكها الجندي الذي يركب حصانه وبيده هذه الإشارات الثلاث الحمراء للتوقف والزرقاء بلون راية البلاد الرسمية للمرور، والسوداء وهي مخصصة للإشارة بها للعمال والشحاذين والمجانين لعدم المرور من بعض الشوراع المخصصة للنبلاء وأكابر الدولة.

تعافت أليخاندرا من مرضها بعد أن سُقيت حساء أوراق أشجار الجوافة وأكلت ثماني ملاعق كبيرة من منقوع الزيتون المطحون بنوى التمر، وأخذت طوال الوقت تداعب القطة (كستيا) وقد شكرت (سيون) على هذه الورود الجميلة، قبَّلتها (سيون) ثمَّ انصرفت مع السيِّدة (مايندا) التي كانت تراقب الساعة الكبيرة المعلقة بسلسلة ذهبية وهلال فضِّي في منتصف البيت.

الشوارع مليئة بماء المطر الذي أخذ ينهمر كأنَّه جوقة، وانقطع مرور العربات التي تجرُّها الأحصنة والبغال، وما من أحدٍ يمرُّ من الشوراع ولا حتَّى الأزقَّة الجانبية، كانت السيدة (مايندا) تحاول أن تحمي الصغيرة من مياه الأمطار التي تنهمر بغزارة، فتارة تجذبها عن يمينها وأُخرى عن شمالها وتارة تحثُّها على المشي السريع حتى تتقي صياح النَّبيل

(موسكوتس)، هنالك في آخر الممر ذي الأعمدة النحاسية التي يتدلَّى من آخر طرفها سراج نحاسي بداخله فتيل مشتعل بالزيت يقاوم المطر.

يصرخ هذا الرجل المجنون بكلماتٍ وضحكاتٍ مجلجلة: "أفيقوا أيُّها المأفونون، أفيقوا من رقادكم، ها هي السماوات تبول عليكم حتى تغرقكم، وسوف تتقيأ عليكم الأرض قيئًا يشبه براز البقر حتى تغرقكم فيه أنتم ونسائِكم، أفيقوا أيُّها الجبناء قبل أن تأكلكم ذئاب السَّماء التي ستهجم عليكم الآن وتنهش أردافكم السمينة".

وقفت (سيون) بالقرب منه تتأمل ما يقول وتصغي وتنظر إليه في شفقة وهو يركل الماء ويتعلَّق في الأعمدة النحاسية بيدٍ ويطلق الأخرى في الهواء بحركات بهلوانية دوارة، ويضحك ضحكاتِه المجلجلة المثيرة للشفقة.

حاولت بكل جهد السيدة (مايندا) أن تحثَّها على المشي لكنَّها رفضت وأخذت قطَّتها في حضنها تضمُّها إليها بينما تطالعها القطَّة (كستيا) بعينيها الذَّهبيَّتين الخائفتين وثبتت مكانها تتأمل ما يقول هذا المجنون، ثمَّ قالت: من هذا يا سيِّدة (مايندا) ولمَ يفعل ذلك؟

قالت: إنه المحترم (سينيور أجاسي) لقد كان منذ عامٍ مضى يعمل معلِّمًا للموسيقا في قصر الأمير (أمير البلاد) لكنَّه طُرِدَ من القصر بعد أن شاهدوه يصلِّي صلاة المسلمين في القصر فحُبس في القبو وظل بلا طعام حتى كان يأكل أوراق البريد، وقد ألهبوا ظهره بالسوط حتى ظهرت له نتوءات في جسده وهو الآن على هذه الحالة.

- قالت سيون: وأين أهله وأتباعه؟

- إنه لا يتبع أحدًا الآن، الكل تخلى عنه.

- لمن أتبع أنا يا سيِّدة (مايندا)؟

- أنتِ تتبعين أباكِ يا طفلتي (النَّبيل موسكوتس).

- ولمن يتبع النَّبيل (موسكوتس)؟

- إنه يتبع (الأمير هورفهاردي) أمير البلاد وحاميها.

- ولمن يتبع (الأمير هورفهاردي يا سيِّدة مايندا)؟

- قالت وهي تحاول عبثًا أن تجذبها للمشي وتحمل عنها القطة: إنه يتبع يسوع المسيح يا طفلتي.

- ولمن يتبع يسوع المسيح؟

– يا طفلتي كلنا أتباع يسوع حتى أنا وأنتِ والجميع.

صاح المعلم المجنون (سنيور أجاسي) مرة أخرى: "إنَّ الموسيقا هي أجمل ما هبط من السماء أيها المأفونون، غدًا ستكونون طعامًا للخفافيش في هذه المدينة الميتة المسكينة، أنا أحضر لكم شواهد قبوركم ها هي، وأخرج من معطفه المبلل حزمة ورق ونثرها في الماء وحاولت سيون أن تلتقط واحدة منها لترى ما المكتوب فيها فجذبتها السيدة (مايندا) بقوة وعبرت بها الشارع مسرعة غير مكترثة بشحمها الذي يتقهقر من كل جانب من جسدها.

بينما أخذت سيون تتمتم وهي تنظر إليه والسيدة (مايندا) تجرها: إن شعره أصفر يشبه شعر يسوع المسيح في صورته المعلقة في فناء بيتنا.

«تمت»

❋ ❋ ❋

"الرباب"

(من حكايا الغجر)

قال الكاتب إبراهيم جابر: "تثير غيرتي خيام الغجر، أقول لنفسي هذا وطنٌ سهل الحمل، أطويه في دقيقتين وأضعه على ظهري"

* * *

أخذ هذا الجمع من الغجر في التحرك فرادى وجماعات وكعادتهم يمتطون ظهور البغال والحمير، تسبقهم همهماتهم وجلبتهم التي لا تنقطع، بينما أصوات حُلي نسائهم وأقراطهن الهلالية الكبيرة آخذة في الاصطكاك كأنها فرقة موسيقية صاخبة، تلحق بهم كلابهم وماشيتهم الهزيلة من الماعز، تناثرت فوق رؤوسهم ظلال ترابية غمرت الطريق المؤدي إلى قرية العبابدة.

إن المهرجان الذي أتى ليقيمه هؤلاء الغجر يحدث سنويًّا، يحمل معه ذكريات أهل البلدة البسطاء مع هؤلاء الغجر في سالف الأيام كما يحمل خبثهم ومكرهم المعهود..

(الرباب) ربة الجمال والفتنة في هذا الجمع من الغجر هذه الفتاة العشرينية الفاتنة التي يعهدها أهل القرية جميعهم بغنائها وصوتها الذي يسلب الألباب وضحكاتها الحلوة العابثة، فالجميع في القرية يذكر هذه الفتاة الجميلة التي ترقص وتغني في مهرجان الغجر كل عام بقوامها الرشيق وتمايلها في غنج يسلب العقول.

وكيف إن الرجال يتسابقون على رضائها والتودد إليها بأي شيء، فتارة بالمال الذي ينثر عند قدمها وهي ترقص، وتارة يتبارى الرجال أمامها في لعب العصا.

حتى إنهم من فرط حماسهم لها يكاد أن يقتل أحدهم الآخر حتى ينال نظرة إعجاب منها.

فإن أحدًا من هؤلاء لن يأوي إلى بيته من قبل أن يأخذ حصته من النظر إلى وجه الرباب ورقصها الذي يحلمون به في صحوهم ومنامهم.

إن الرباب اليوم أصبحت على مشارف الثلاثين ويا لهذا العمر عند المرأة، إنها في أوج نضجها وفتنتها، فقد امتلأ جسمها قليلًا وتورد خداها أكثر وأكثر، وأصبحت كغصن بان في مطلع اعتداله، ويا للعجب إن الرباب اليوم على غير العادة، تغني وهم في طريقهم إلى البلدة وتشدو

كعادتها ولكن بغناء غير الغناء، إنها تندب أو تنتحب بحرقةٍ شديدة وكلمات قوية رنانة عن العشق والفقد، حتى إن جميع النسوة اللواتي في الجمع أخذن يندبن ويبكين بكاءها وينتحبن نحيبها من فرط كلماتها التي تشق قلوبهم حزنًا وكمدًا...

أبكي على بيض الليالي وطيبها
غلبتني الأيام رضيت بغلبها
ولا يغلب الأيام إلا من رضي بها
يا مصعب الفُرقة على من يُلي بها
يا رب أنا بانوح لفرقة حبايبي
يا رب من كان السبب في فراقنا
تبلاه بطعنه ما يلاقي طبيبها

إن هذه الكلمات البسيطة في نطقها القوية في محتواها إنما خرجت هكذا منظومة من قلب كسير ومجروح، وهذا التضرع لله والنحيب والدعاء على من كان السبب في فراق الأحبة أتى من لوعة وكمد يشق الصدر.

ولكن تُرى ما الذي حدث وكيف تحولت هذه الفتاة الفاتنة المبهجة إلى امرأة ثكلى كسيرة ومجروحة لا تعرف في غنائها غير النواح ولا تخرج من فمها إلا كلمات التعلل والصبر على البلوى؟

إن ما حدث للرباب هو مكيدة بكل تأكيد، فليس من السهل أبدًا التحايل على فتاة ذكية قوية شرسة وجميلة مثل الرباب أو خداعها بسهولة إلا عن طريق المكائد.

وجملة ما حدث أن الفتى الوسيم الغني صاحب الجاه والثراء إبراهيم ابن عبد المجيد بيك أحد وجهاء الناحية، قد هام بالرباب حبًّا، بل عشقًا أخذ عليه عقله، وقد حاول بكل الطرق استرضاءها ولكنه فشل في ذلك، فتركها وشأنها بعد إن أضناه التمني.. إلا من بعض المناوشات البسيطة ليحصل على ضحكة منها تُسري خاطره، أو كلمة منها ترضي غروره، وقد كانت تفعل ذلك تارة من باب الشفقة عليه، وأخرى من الخوف من بطش أبيه إن علم بالأمر، وعلى الجانب الآخر نرى" سليمة" وهي أيضًا إحدى فتيات الغجر الجميلات وتكبر الرباب بعامين قد عشقت إبراهيم بن عبد المجيد بك، وحاولت التودد إليه واستمالت

قلبه، فتارة ترقص أمامه في خيمة السامر الليلية، وتارة تذهب إليه وتلقي بنفسها في أحضانه فما كان منه إلا أنه ينهرها ويوبخها ويصفها بأحقر الصفات، فترجع ذليلة مكسورة تطوي عشقها في قلبها حتى يكمن ككمون النار في الموقد حتى تقدحه مرة أخرى في الصباح فيوري نارًا تحرق قلبها.

وفي ليلة من ليالي القمر بينما سليمة تسير بين الخيام إذ رأت إبراهيم بك ابن الحسب والنسب يركع عند الرباب ويُقبل قدميها ويسترضيها ويتوسل إليها توسل العابد ويستميلها استمالة من هانت عليه نفسه فداء لعشقه، ففزع قلبها لذلك المشهد المهيب الذي ملأ قلبها حقدًا وكرهًا وسخطًا لا تأمن على نفسها به ولا على غيرها منه.

فأقسمت أن تنتقم من الرباب شر نقمة وتبليها شر بلوى، فجمعت نسوة الغجر وأشاعت بينهن أن أبا الرباب وأمها المعروفين في قبيلة الغجر ليسا أبويها، إنما هي ابنة رجل ثري، وأن اسمها ليس الرباب وقد خطفها أحد لصوص الغجر وهي ابنة شهر وأتى بها إلى قبيلة الغجر، "إن أبا الرباب سالم الغجري قد مات وهو يروض أحد الثعابين السامة، وقد كانت أمها حامل بها في شهرها التاسع وماتت بعد ولادتها بشهر".

هذه هي حقيقة الأمر التي تعرفها الرباب ويعرفنها نساء الغجر ورجاله ولكن سليمة نشرت هذه الكذبة وقوتها بعض من نساء الغجر ممن لهن كلمة عندها، ونفر من الرجال منهم الذين يميلون لسليمة، وعلى الرغم من أن نساء الغجر العجائز وهما اثنتين جاءتا إلى الرباب وأقسمتا لها أن هذه الأقاويل غير حقيقية، وأن والدها سالم الغجري وقد مات بلدغة ثعبان سام وهو يقوم بترويضه، وأمها "سعيدة الغجرية" وأنها من الغجر، غير أن الرباب أصبحت شاردة الذهن كأنها تريد أن تعرف الحقيقة، وأي حقيقة تلك التي لا وجود لها سوى في عقل سليمة ومن معها؟!

فأصبحت الرباب واجمة صامتة لا تفعل شيئًا سوى التحديق في السماء، كأنها تنتظر الحقيقة أن تقع بين يديها من بين نجوم السماء.. وهكذا تفعل الفتنة والوهم في نفس الأنسان.

«تمت»

الفهرس

"إهداء" 5

"الكلب" 6

"شروق من جهةٍ أخرى" 13

"نفرتيتي" 44

"حب في بلاد اللافندر" 52

"الهـاوية" (جاد الحقِّ) 57

"مطـر" 62

"الرباب" (من حكايا الغجر) 67

❋ ❋ ❋